

تطبيق 08/ شعر ابن الأبار

نبذة عن الشاعر ابن الأبار:

هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاوي، ولد عام 1199م (595هـ) في مدينة بلنسية (فالنسيا المعاصرة)، حاضرة الشرق الأندلسي، والتي ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً، وحمل نسبها في اسمه، فُعرف دائمًا بـ ”ابن الأبار البلنسي“، وكان مولده بعد أربعة أعوامٍ من آخر انتصارٍ كبير لل المسلمين في الأندلس على خصومهم القشتاليين الإسبان في موقعة الأرك عام 1195م (591هـ)، في عهد خليفة دولة الموحدين المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، والذي توفي للمفارقة في عام مولد ابن الأبار نفسه، ولم يحكم الأندلس والمغرب بعده أحد بقوته نفسها وتمدد دولته. كانت أسرة ابن الأبار معروفة بالعلم والمكانة الاجتماعية، وكان أبوه عبد الله من العلماء المعروفين، ودرس على يديه فترةً من الزمن، ثم سافر في كافة أنحاء الأندلس طلباً للعلم والمعارف، وتلمنذ على يد كبار فقهاء وأدباء عصره من القضاة وعلماء الأحاديث، ومنهم الحافظ أبو الريبع بن سالم، كبير علماء الحديث في الأندلس، والذي لازمه ابن الأبار لأكثر من 20 عاماً.

نماذج من شعر ابن الأبار:

كان ابن الأبار يغتنم كل فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط ولاء وتبعة، من ذلك قصيدة رقم «25- ص: 80» الذي يسجل فيها بيعة بعض المدن الأندلسية لأبي زكريا، وذلك حوالي 641هـ يقول:

إلا هذه «حمس» تناسب طاعة
إلى مذهب سنته سبعة قاصد
به عدلوا عن زائفات المذاهب
ومنهم أنوار المدى كل جانب

وجنان لم تبرح كشلب وطنحة
وأنا خالفت غرناطة رأي ربّة
سحملمسة في رفضها للمناصب
ومباريّة هوج الصبا والجنائب

وعندما سقطت اشبيلية في أيدي القشتاليين في شعبان 646هـ كان ابن الأبار في بجاية، وبعد ذلك بثلاثة أشهر أنشأ قصيدة موجهة إلى أبي زكريا، وكان ذلك بعد العفو عنه، وهي كلها تحريض وإثارة للحفصيين ليسارعوا الإنقاذ الأندلس بأسلوب يدل أن الأمر هين، وأن ليس بين الحفصيين وبين القضاة على محنتي بلنسية وغيرها سوى أيام قليلة، فأرض الأعداء قد استوحيت وأذنت بافتتاحها، إذ ليس وراء الليل إلا الصباح، إنهم ذئاب هيبحوا ليث الحرب والمعامع، وقد صور الأعداء بأنهم ضعفاء ومنهزمون، في حين صور الحفصيين في قوة واكتساح ولم يتحدث عن نفسه إلا في آخر القصيدة حيث أبرز فرحة عارمة بالعفو عنه إذ يقول:

يدك العليّا حيث كل حذيا
بوركت من راحلة سوغنتي
ما لأرياحي بهما من براح
في بکوري لشمها أو رواحني

ومن القصائد التي مدح بها أبا زكرياء، واصفاً أحواله الجديدة، وحياته بتونس في ظل الحفصيين تلك التي مهد لها بمقيدة غزليّة طويلة، مادحاً الأمير بأوصاف مستفيضة من العلم والشجاعة والكرم، وربط ذاك بجهاده للكفار بالأذن دلس.

يقول في آخر القصيدة الطويلة:

ولـهـ مـلـوكـ الـرـومـ تـشـخـصـ رسـلـهـ
وـيـغـزـىـ جـنـابـ طـالـ بـالـغـزوـ عـهـدـهـ
وهـنـاـ حـقـيقـةـ هـامـةـ لـمـ تـسـجـلـ فـيـ التـارـيـخـ أـوـ عـلـىـ الأـقـلـ فـيـ تـارـيـخـنـاـ،ـ وـهـيـ السـفـارـاتـ الإـغـوـنـيـةـ أـوـ غـيرـهـاـ إـلـىـ تـونـسـ فـيـ
شـأـنـ تـنـظـيمـ الـعـلـاقـاتـ الـخـرـيـنـةـ وـالـسـلـيـمـةـ بـيـنـ الـجـانـبـيـنـ.
كـانـ اـبـنـ الـآـبـارـ شـخـصـيـةـ قـوـيـةـ،ـ مـفـرـطـةـ فـيـ الإـعـجـابـ بـنـفـسـهـ،ـ وـزـادـتـهـ الـغـرـبـةـ حـدـةـ فـيـ طـبـعـهـ مـاـ جـعـلـهـ يـجـارـ بـالـشـكـوـيـ.
وـكـانـ يـبـثـ هـذـهـ الشـكـوـيـ خـالـلـ قـصـائـدـ الـاعـذـارـيـةـ وـخـالـلـ نـفـتـاتـهـ الـحزـنـيـةـ،ـ الـتـيـ كـانـتـ أـشـوـاقـاـ لـوـطـنـهـ،ـ وـوـصـفـاـ جـمـالـهـ،ـ
وـتـرـدـدـاـ لـذـكـرـيـاتـ جـمـيلـةـ فـيـ رـيـاضـهـ وـحـلـقـاتـ الـعـلـمـيـةـ وـمـحـالـسـ أـصـحـابـهـ،ـ وـمـدـارـجـ الـعـابـهـ.ـ يـقـولـ شـاكـيـاـ ضـيـاعـهـ
لـكـنـهـ سـئـمـواـ وـلـمـ أـسـامـ
وـظـعـنـتـ غـيـرـ مـوـدـعـ وـمـسـلـمـ
أـخـرـجـتـ مـنـ وـطـنـيـ وـلـسـتـ بـمـحـرـمـ
يـغـدوـ الـفـصـيـحـ مـعـصـمـاـ لـلـأـعـجـمـ
أـشـكـوـ وـتـطاـوـلـهـ وـيـوـمـ أـيـوـمـ
لـاـ أـسـتـرـيـحـ بـغـيـرـ لـيـلـ أـيـلـ
وـقـدـ مـرـتـ عـلـىـ الشـاعـرـ الـوـزـيـرـ حـقـبـ كـانـ الـحـدـيـثـ فـيـهـاـ عـنـ نـفـسـهـ مـنـزـوـجاـ بـوـطـنـهـ وـقـضـيـتـهـ،ـ فـالـجـرـاجـ مـلـكـتـ عـلـيـهـ
جـوارـحـهـ وـاسـتـبـدـتـ بـهـاـ.ـ لـاـ تـخلـوـ جـارـحةـ مـنـ جـرـحـ يـنـزـفـ دـمـاـ،ـ فـلـاـ أـمـلـ فـيـ شـفـائـهـ،ـ ذـلـكـ لـأـنـهـ كـوـطـنـهـ عـارـ أـعـزـلـ أـمـامـ
هـجـمـاتـ الـخـطـوبـ وـالـكـوـارـثـ الـمـتـجـدـدـةـ،ـ وـهـوـ فـيـ صـحـراءـ قـاحـلـةـ لـاـ مـاءـ وـلـاـ شـجـرـ،ـ بـلـ إـنـهـ يـسـيرـ فـيـ مـتـاهـاتـهـ لـيـسـ لـهـ
فـيـهـ مـنـ سـبـيلـ وـلـاـ قـدـرـةـ عـلـىـ التـخـلـصـ مـنـ الـمـلـاـكـ الـذـيـ يـتـبـصـهـ فـيـ كـلـ نـاحـيـةـ،ـ كـطـائـرـ مـهـيـضـ الـجـنـاحـ،ـ وـحـدـيـهـ عـنـ
وـطـنـهـ مـفـعـمـ أـبـداـ بـالـأـسـيـ وـالـكـمـدـ،ـ إـذـ أـسـلـمـ إـلـىـ الـعـدـوـ الـذـيـ هـوـيـ عـلـيـهـ بـسـيفـهـ كـالـسـفـاحـ فـيـ حـيـنـ غـابـ عـنـهـ مـنـصـورـهـ
الـذـيـ كـانـ يـحـمـيـ حـمـاهـ،ـ وـيـحـوـطـهـ بـالـأـمـنـ وـالـأـمـانـ.

يـقـولـ فـيـ نـيـلـ بـلـنـسـ دـبـ بـلـنـسـ يـةـ:
مـلـكـتـ جـوارـحـهـ عـلـيـهـ جـراحـهـ
غـيـضـتـ مـوـارـدـهـ وـهـبـضـ جـنـاحـهـ
عـارـ لـإـبـكـارـ الـخـطـوبـ وـعـونـهـاـ
لـمـ يـعـتـرـضـهـ مـسـأـوـهـ بـمـسـاءـةـ
إـلاـ وـضـعـفـهـ عـلـيـهـ صـبـاحـهـ.....

المراجع: عبد السلام المراس، ابن الأبار الأندلسي اللبناني: شاعر وفي لوطنه.